تجديد الإسلام[1]

رسالة الأزهر في القرن العشرين[2]

(الأزهر) هذه هي الكلمة لا يقابلُها في خيال الأمَّة المصريَّة إلا كلمة (الهرم) وفي كلتا اللَّفظتين يَكمُن سرٌّ خَفِيٌّ من أسرار التَّاريخ ، تجعل بعض الكلمات ميراثاً عقليّاً للأمَّة ، يُنسِي مادة اللُّغة فيها ، ولا يبقي منها إلا مادَّة النَّفس ؛ إذ تكونُ هذه الكلمات تعبيراً عن شيءٍ ثابتٍ ثبات الفكرة ؛ الَّتي لا تتغيَّر ، مستقِرٌّ في الرُّوح القوميَّة استقرارَه في الزَّمن ، متجسِّمٍ من معناه كأنَّ الطَّبيعة قد أفردته بمادَّته دون ما يشاركه في هذه المادَّة ، فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً ، وفنّاً لا جسماً ، والمكان في الأزهر يغيب فيه معنى المكان ، وينقلب إلى قوَّةٍ عقليَّةٍ ساحرةٍ توجد في المنظور غير المنظور .

وعندي : أنَّ الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مِصْرُ كنانة اللهِ في أرضه » فعلماؤه اليوم أسهمٌ نافذةٌ من أسهم الله يرمي بها من أراد دينه بالسُّوء ، فيُمسكها للهيْبة ، ويرمي بها للنَّصر ، ويجب أن يكون هذا المعنى أوَّل معانيهم في هذا القرن العشرين ؛ الَّذي ابتلي بملْءِ عشرين قرناً من الجُرأة على الأديان ، وإهمالها ، والإلحاد فيها .

أوَّل شيءٍ في رسالة الأزهر في القرن العشرين : أن يكون أهله قوَّةً إلـٰهيَّةً مُعدَّةً للنَّصر ، مهيأةً للنِّضال ، مسدَّدةً للإصابة ، مقدَّرةً في طبيعتها أحسن تقدير ، تُشعر النَّاس بالاطمئنان إلى عملها ، وتوحي إلى كلِّ من يراها الإيمان الثَّابت بمعناها ؛ ولن يأتيَ لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصَّحيحة ، فلا يكون العلم تحرُّفاً ، ولا مِهنةً ، ولا مَكسبةً[3] ، ولا يكون في أوراق الكُتب خيالُ (أوراق البنك) . . بل

---

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة . (س) .

(٢) لم نتكلم في هذه المقالة عن اللغة ، والأدب ، وتفصيل علوم الأزهر ؛ لأن هذه هي مادة الأزهر ، لا رسالته الجديدة في رأينا . (ع) .

(٣) أي : احتراف العلم للتكسُّب به ، كما نراه اليوم .

تظهر فيهم العظمة الرُّوحانيَّة آمرةً ناهيةً في المادَّة ، لا مأمورةً منهيَّةً بها ؛ ويرتفع كلٌّ منهم بنفسه ، فيكون مُقرِّر خُلقٍ في الحياة قبل أن يكون معلِّم علم الحياة ؛ لينبثَّ منهم مغناطيس النُّبوَّة ، يجذبُ النُّفوسَ بهم أقوى ممَّا تجذبها ضلالات العصر ؛ فما يحتاج النَّاس في هذا الزَّمن إلى العالِم ، وإنَّ الكتُبَ والعلومَ لتملأ الدُّنيا ، وإنَّما يحتاجون إلى ضميرِ العالم .

وقد عجزت المدنيَّة أن توجِدَ هذا الضَّمير ، مع أنَّ الإسلامَ في حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضَّمير ؛ إذ هو دينٌ قائمٌ على أنَّ الله لا ينظرُ من الإنسان إلى صورته ، ولكن إلى عمله ؛ فأوَّلُ ما ينبغي أن يحمله الأزهرُ من رسالته ، ضمائر أهلِه .

والنَّاس خاضعون للمادَّة بقانون حياتهم ، وبقانونٍ آخر ، هو قانون القرن العشرين . . فهم من ثَمَّ في أشدِّ الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلِّط على المادَّة بقانون حياته ؛ ليَرَوْا بأعينهم القوى الدَّنيئة مغلوبةً ، ثُمَّ ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة والاحتذاءِ ، فيتَّصلوا منه بقوَّتين : قوَّة التَّعليم ، وقوةِ التَّحويل .

وهذا هو سرُّ الإسلام الأوَّل ؛ الذي نَفَذَ به من أمَّةٍ إلى أُمَّةٍ ، ولم يقُمْ له شيءٌ يَصدُّهُ ؛ إذ كان ينفذُ في الطَّبيعةِ الإنسانيَّة نفسها .

* * *

ومن أخصِّ واجباتِ الأزهر في هذا القرن العشرين : أن يعملَ أوَّلَ شيءٍ لإقرار معنى الإسلام الصَّحيح في المسلمين أنفسِهم ، فإنَّ أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنَّسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو في حاجةٍ إلى تجديد إسلامِه .

والحكومات الإسلاميَّةُ عاجزةٌ في هذا ، بل هي من أسباب هذا الشَّرِّ ؛ لأنَّ لها وجوداً سياسيّاً ، ووجوداً مدنيّاً ؛ أمَّا الأزهر فهو وحده الَّذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب ؛ وهو وحده الذي يسعه ما تعجز عنه ، وأسباب نجاحه مهيَّأةٌ ثابتةٌ ؛ إذ كان له بقوَّة التَّاريخ حكم الزَّعامة الإسلاميَّة . وكانت فيه عند المسلمين بقيَّة الوحي على الأرض ؛ ثُمَّ كان هو صورة المزاج النَّفسيِّ الإسلاميِّ المحض ؛ بيد أنَّهُ فرَّط في واجب هذه الزَّعامة ، وفقد القوَّة التي كان يحكم بها ، وهي قوَّة المثل الأعلى ؛ التي كانت تجعلُ الرَّجلَ من علمائه كما قلنا مرَّةً : إنساناً تتخيَّره المعاني السياسيَّة ، تظهرُ فيه بأسلوبٍ عمليٍّ ، فيكون في قومه ضرباً من التَّربية ، والتَّعليم بقاعدةٍ منتزعةٍ من مثالها ، مشروحةٍ بهذا المثال نفسه .

والعقيدةُ في سواد النَّاس بغير هذا المثلِ الأعلى هي أوَّلُ مغلوبٍ في قوى الحياة .

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارَهم إلى علماء الأزهر ، فهم يتَّبعونهم ، يتأسَّوْن بهم ، ويمنحونهم الطَّاعةَ ، وينزلون على حكمهم ، ويلتمسون في سيرتهم التَّفسيرَ لمشكلات النَّفس ، ويعرفون بهم معنى صِغر الدُّنيا ، ومعنى كِبر الأعمال العظيمة ؛ وكان غنى العالم الدِّينيِّ شيئاً غير المال ، بل شيئاً أعظم من المال ؛ إذ كان يجد حقيقة الغنى في إجلال النَّاس لفقره كأنَّه ملكٌ ، لا فقرٌ ، وكان زهده قوَّةً حاكمةً فيها الصَّلابة ، والشِّدَّة ، والهيبة ، والسُّموُّ ، وفيها كلُّ سلطان الخيرِ ، والشَّرِّ ؛ لأنَّ فيها كلَّ النَّزعات الاستقلاليَّة : ويكاد الزُّهد الصَّحيحُ يكونُ هو وحده القوَّة ؛ الَّتي تجعل علماءَ الدِّين حقائقَ مؤثرةً عاملةً في حياة النَّاس أغنيائهم ، وفقرائهم ، لا حقائق متروكةً لنفسها ، يوحش النَّاس منها : أنَّها متروكةٌ لنفسها .

* * *

وعلماءُ الأزهر في الحقيقة قوانين نفسيَّة نافذةٌ على الشَّعب ، وعملهم أرَدُّ على النَّاس من قوانين الحكومةِ ، بل هم التَّصحيح لهذه القوانين إذا جَرت الأمور على عللها ، وأسبابها ، فيجب عليهم إن يحقِّقوا وجودَهم ، وأن يتناولوا الأمَّة من ناحيةِ قلوبها ، وأرواحها ، وأن يُعِدُّوا تلاميذهم في الأزهر ، كما يعدُّون القوانين الدَّقيقةَ ، لا طلَّاباً يرتزقون بالعلم .

أين صوت الأزهر ، وعمله في هذه الحياة المائجة بما في السَّطح وما في القاع . . ؟ وأين وحي هذه القوَّة ؛ الَّتي ميثاقها أن تجعلَ النُّبوَّةَ كأنَّها شيءٌ واقعٌ في الحياة العصريَّة ، لا خبرٌ تاريخيٌّ فيها ؟!

لقد أصبح إيمان المسلمين كأنَّه عادةَ الإيمان ، لا الإيمان نفسه ، ورجع الإسلام في كتبه الفقهيَّة ، وكأنَّه أديانٌ مختلفةٌ متناقِضةٌ ، لا دينٌ واحدٌ ، فرسالة الأزهر أن تجدِّدَ عملَ النُّبوَّة في الشَّعب ، وأن يُنْقِيَ عملَ التَّاريخ في الكتب ، وأن يبطلَ عملَ الوثنيَّة في العبادات ، وأن يعطي الأمَّة دينها الواضحَ السَّمْح الميسَّر ، وقانونها العمليَّ ؛ الذي فيه سعادتها ، وقوَّتها .

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً في قيادة الحركة الرُّوحيَّة الإسلاميَّة ، جريئاً في عمله لهذه القيادة ، آخذاً بأسباب هذا العمل ، ملحّاً في طلب هذه الأسباب ، مصرّاً على هذا الطَّلب ، وكلُّ هذا يكون عبثاً ؛ إن لم يكن رجال الأزهر ، وطلبته أمثلةً من الأمثلة القويَّة في الدِّين ، والخلق ، والصَّلابة ؛ لتبدأ الحالةُ النفسيَّةُ فيهم ، فإنَّها إن بدأت ؛ لا تقف ؛ والمثل الأعلى حاكمٌ بطبيعته على الإنسانيَّة ؛ مُطاعٌ بحكمه فيها ، محبوبٌ بطاعتها له .

والمادَّةُ المطهِّرة للدِّين والأخلاق لا تجدُها الأمَّة إلا في الأزهر ، فعلى الأزهر أن يثبت : أنَّ فيه تلك المادَّة بإظهارها لهم لا بإلصاقِ الورقة المكتوب فيها الاسمُ على الزُّجاجة .

ومن ثمَّ يكونُ واجبُ الأزهر أن يطلبَ الإشرافَ على التَّعليم الإسلاميِّ في المدارس ، وأن يدفع الحركة الدِّينيَّة دفعاً بوسائل مختلفةٍ ، أوَّلها : أن يحملَ وزارة المعارف على إقامة فرض الصَّلاة في جميع مدارسها ، من مدرسة حرِّيَّة الفكر . . . فنازلاً ، والأمَّة الإسلاميَّة كلُّها تشدُّ رأي الأزهر في هذا .

وإذا نحن استخرجنا التَّفسير العمليَّ لهذه الآية الكريمة : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[النَّحل : ١٢٥] دلَّتنا الآية بنفسها على كلِّ تلك الوسائل ، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعيَّة في العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطَّريقة النَّفسيَّة في الدَّعوة .

العلماءُ ورثة الأنبياء ، وليس النَّبيُّ من الأنبياء إلا تاريخ شدائدَ ، ومِحَن ، ومجاهَدةٍ في هداية النَّاس ، ومُراغمةٍ للوجود الفاسد ، ومكابَدةِ التَّصحيحِ للحالة النَّفسيَّة للأمَّة ؛ فهذا كلُّه هو الذي يورَث عن الأنبياء ، لا العلمُ ، وتعليمُه فقط .

* * *

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق ، وأصبح وجودُه هو المعنى المتمِّم للحكومة ، المعاون لها في ضبط الحياة النَّفسيَّة للشَّعب ، وحياطتِها ، وأمنِها ، ورفاهتِها ، واستقرارها ؛ اتَّجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين ، بعد أن يكونَ قد حقَّق الذَّرائعَ إلى هذه الرسالة : من فتح باب الاجتهاد ، وتنقية التَّاريخ الفقهيِّ ، وتهذيبِ الرُّوح الإسلاميِّ ، والسُّموِّ به عن المعاني الكلاميَّة

الجدَليَّة السَّخيفة ؛ ثُمَّ استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنَّة فيه ، لهذه العصور العلمية الأخيرة ، وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوَّة ؛ الَّتي تُمسك الإسلامَ على سنَّته بين القديم ، والجديد ، لا ينكره هذا ، ولا يغيِّره ذاك ، وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربيِّ بكتبه ، ودُعاته ، ومبعوثيه من حاملي علمه ، ورُسُل إلهامه .

أمَّا تلك الرِّسالة الكبرى ؛ فهي بثُّ الدَّعوة الإسلاميَّة في أوربة ، وأمريكة ، واليابان ؛ بلغات الأوربيِّين ، والأمريكيِّين ، واليابانيِّين ، في ألسنةٍ أزهريَّةٍ مُرهَفةٍ مصقولةٍ ، لها بيان الأدب ، ودقَّة العلم ، وإحاطة الفلسفة ، وإلهام الشِّعر ، وبصيرة الحكمة ، وقدرة السِّياسة ؛ ألسنةٍ أزهريَّةٍ لا يوجَد الآن منها لسانٌ واحدٌ في الزهر ، ولكنَّها لن توجدَ إلا في الأزهر ؛ ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين ؛ إذا هو لم يوجدها ، فتكون المتكلِّمة عنه ، والحاملة لرسالته ، وما هذه البعثات ؛ التي قرَّر الأزهر ابتعاثها إلى أوربة إلا أوَّل تاريخ تلك الألسنة .

إنَّ الوسيلةَ التي نشرت الإسلامَ من قبل لم تكن أجنحة الملائكة ، ولا كانت قوَّةً من جهنَّم ، ولا تزال هي التي تنشره ؛ فليس مستحيلاً ، ولا متعذِّراً أن يغزوَ هذا الدِّين أوربة ، وأمريكة ، واليابان ، كما غزا العالَم القديم . ولم يكن السِّلاح من قبل إلا طريقةً لإيجادِ إسلامٍ في الأمَّة الغريبة عنه ، حتَّى إذا وجد تولَّى هو الدَّعوة لنفسه بقوَّةِ النَّاموس الطَّبيعيِّ القائم على أنَّ الأصلح هو الأبقى ، وانحازَتْ إليه الإنسانيَّةُ ؛ لأنَّه قانون طبيعتِها السَّليمة ، ودين فطرتها القويَّة ؛ وقد ظلَّ الإسلامُ ينتشر ، ولم يكن يحمله إلا التَّاجر ، كما كان ينتشر ، وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السِّلاح في هذا العصر ، وجعله سلاحاً من فلسفة الدِّين ، وأسرار حكمته ، فهذا الدِّين كما قلنا في بعض كلامنا[1] : أعمالٌ مفصَّلةٌ على النَّفس أدقَّ تفصيلٍ ، وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلها العَمَليَّ الثَّابتَ المستقرَّ ، تنظِّم به أحوال النَّفس على مَيزةٍ ، وبصيرةٍ ، ويدع للحياة عقلها العلميَّ المتجدِّد المتغيِّر ، تنظِّم به أحوالَ الطبيعة على قصدٍ ، وهُدىً ، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخصِّ معانيه ، لا يُغني عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدِّي تأديته في هذه

(١) انظر مقالة : « الإشراق الإلـٰهي » ج٢ « وحي القلم » . (س) .

الحاجة أدبٌ ، ولا علمٌ ، ولا فلسفةٌ ، كأنَّما هو نَبعٌ في الأرض لمعاني النُّور ، بإزاءِ الشَّمس نبع النُّور في السماء .

ليس على الأزهر إلا أن يُوجِدَ من الإسلام في تلك الأمم ما يستمرُّ ، ثُمَّ الاستمرار هو يُوجد ما يثبت ، والثَّبات يوجد ما يدوم ؛ وكأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أشار إلى هذا في قوله : « نضَّر الله امرأً سمع مني شيئاً ، فبلَّغه كما سمعه ، فربَّ مُبلَّغٍ أَوْعى له من سامع »(1) .

أما والله إنَّ هذا المبلَّغ الذي هو أوعى له من السَّامع لن يكون في التاريخ بأدقِّ المعنى إلا أوربة ، وأمريكة في هذا الزَّمن العلميِّ ؛ إذا نحن عرفنا كيف نبلِّغ .

أما مستيقنٌ : أنَّ فيلسوف الإسلام الذي سيُنشر الدِّين على يده في أوربة ، وأمريكة لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ إلا أوَّل التطوُّر المنتهي إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السَّعادة لتلك الأمم من آداب الإسلام وأعماله ، ثمَّ مخاطبة الأمم بأفكارها ، وعواطفها ، والإفضاءَ من ذلك إلى ضميرها الاجتماعيِّ فإنَّ أوَّل الدين هناك أسلوبه الَّذي يظهر به .

* * *

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ، ويجب أن يتحقَّق بوسائلها من الآن ، ومن وسائلها أن يُعالِن بها ، لتكونَ مَوثقاً عليه ، ويحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضمَّ إليه كلَّ مفكِّرٍ إسلاميٍّ ذي إلهامٍ ، أو بحثٍ دقيقٍ ، أو إحاطةٍ شاملةٍ ، فتكون له ألقابٌ علميَّةٌ يمنحهم إيَّاها ، وإنْ لم يتخرَّجوا فيه ، ثم يستعين بعلمهم ، وإلهامِهم ، وآرائهم .

وبهذه الألقاب يمتدُّ الأزهر إلى حدودٍ فكريَّةٍ بعيدةٍ ، ويصبح أوسع في أثره على الحياة الإسلاميَّة ، ويحقِّق لنفسه المعنى الجامعيَّ .

وفي تلك السَّبيل يجب على الأزهر أن يختار أيَّاماً في كلِّ سنةٍ يجمع فيها من المسلمين (قرش الإسلام) : ليجِدَ مادَّة النَّفقة الواسعة في نشر دين الله ، وليس

(1) رواه أبو داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٧) ، وابن ماجه (٢٣٢) ، وأحمد (١/٤٣٧) ، وابن حبان (٦٨٠) .

على الأرض مسلمٌ ، ولا مسلمةٌ لا يبسُطُ يده ، فما يحتاج هذا التَّدبير لأكثر من إقراره ، وتنظيمه ، وإعلانه في الأمم الإسلاميَّة ، ومواسمها الكبرى ، وخاصَّةً موسم الحجِّ .

وهذا العمل هو نفسه وسيلةٌ من أقوى الوسائل في تنبيه الشُّعور الإسلاميِّ ، وتحقيق المعاونة في نشر الدِّين ، وحياطته ، وعسى أن تكون له نتائج اجتماعيَّةٌ لا موضع لتفصيلها هنا ، وعسى أن يكون (قرش الإسلام) مادَّةً لأعمالٍ إسلاميَّةٍ ذات بالٍ ، وهو على أيِّ الأحوال صلةٌ روحيَّةٌ تجعل الأزهر كأنَّه معطِيه لكلِّ مسلك ، لا آخذه .

والخلاصة : أنَّ أوَّل رسالة الأزهر في القرن العشرين : اهتداءُ الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين : ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود : ١٢٠] .

* * *